تمهيد

التحنيط بوجه عام هو حفظ جثث الموتى من التلف . وقد كان قدماء المصريين هم أول من مارس هذه العملية فى العصور الغابرة ، وذلك فى عهد الأسرة الأولى ، أى فيما بين عامى ٣١١٠ و ٢٨٨٤ قبل الميلاد . وبلغ شأوه العظيم فى خلال حكم الأسرة الحادية والعشرين .

وكان الغرض من هذه العملية هو حفظ أجساد الموتى من التحلل والفناء والاحتفاظ بالمظهر الخارجى للشخص الميت والإبقاء على ملامحه الشخصية فى خلال رحلته إلى العالم الآخر .

ولما كان المصريون القدماء لم يدونوا شيئاً عن فن التحنيط فى سجلاتهم الكثيرة التى عثر عليها ضمن تراثهم الخالد ، لأنهم كانوا يعتبرونه من الأسرار التى لايجوز إعلانها والكشف عنها .. فإن أوثق المصادر حتى الآن ، التى يعتمد عليها فى الحصول على معلومات وافية تتصل بهذا الموضوع ، هى كتابات « هيرودوت » المؤرخ اليونانى الشهير ، وكذلك مؤلفات « تيودور الصقلى » .

ولقد ذكر «هيرودوت» أنه كانت هناك ثلاث طرق للتحنيط يقوم بها الإخصائيون . وكانت الطريقة الأولى تعتمد على إخراج أكبر قدر من مخ الميت عن طريق فتحتى الأنف ، بوساطة أداة حديدية خاصة ، وكانوا يستخدمون فى ذلك بعض العقاقير .

وكان إخراج محتويات البطن يتم عن طريق قطع أو فتحة فى الخاصرة ، كما كان الجزء الداخلى من الجثة يغسل بالنبيذ المستخرج من البلح ، بعد أن تضاف إليه بعض المواد العطرية ثم يحشى هذا الجزء بالتوابل .

وكانت الجثة توضع بعد ذلك لمدة سبعين يوماً فى مادة النطرون «كربونات الصوديوم» الموجودة بكثرة فى بحيرات وادى النطرون . وبعد ذلك كانت الجثة تغسل جيداً ، وتلف من قمة الرأس إلى أخمص القدمين بأربطة من التيل الرقيق المشبع بالصمغ . ثم كانت الجثة تسلم لأهل الميت ، حيث يضعونها فى صندوق خشبى يحمل هيئة الفقيد وملامحه ، ثم يوضع الصندوق قائماً ويستند على حائط إحدى حجرات المقبرة . وقد يكون هذا الصندوق الخشبى موشى بالذهب ، أو يضعونه فى تابوت آخر من الذهب الخالص ، إذا كان الميت من ذوى الحيثية والمكانة وأنصاف الآلهة .

وكانت الطريقة السابقة خاصة بالأغنياء والبارزين من أفراد الشعب ، لأن تكاليفها كانت باهظة لا يتحملها الفقراء .

وفى الطريقة الثانية كان يستعاض عن القطع أو الشق بحقن الميت فى بطنه بكمية من زيت الأرز (cedar oil) ، ثم توضع الجثة فى النطرون لمدة سبعين يوماً ، وبعد ذلك كانوا يستخرجون الزيت ومعه المعدة والأمعاء من الفتحة الخلفية للجثة .

أما بين الطبقات الفقيرة فكانت تستخدم طريقة ثالثة ، حيث كانت تستخرج الأمعاء والأعضاء الداخلية الأخرى بعد الموت مباشرة بواسطة أداة خاصة ، ثم تسلم الجثة لأقارب الميت بعد وضعها لمدة سبعين يوماً فى مادة النطرون .

وفى كلتا الطريقتين الثانية والثالثة لم تكن تستخدم أربطة من التيل كما هى الحال فى الطريقة الأولى .

وقد اختار المصريون القدماء لدفن موتاهم الأجزاء المتاخمة لوادى النيل من الصحراء الغربية ، لأنهم كانوا يعرفون أن رمال الصحراء أقدر على حفظ الموتى من التربة الطينية الرطبة ، وكانوا يؤمنون بأن الشخص الميت كالشمس الغاربة . . كلاهما ينبغى أن يغادر الدنيا من ناحية الغرب .

ومن المعروف أنهم كانوا يكلفون أنفسهم كل هذا العناء فى تحنيط موتاهم ، وخاصة البارزين منهم ، لإيمانهم بأن الروح كانت تعود إلى الجسد بعد الموت ، حيث يواصل الميت حياته الثانية فى العالم الآخر . وكانوا يظنون أن الروح قد تضل الطريق

فى عودتها ، ولا تتعرف على جثتها إذا تحللت وتعفنت . فكانوا يحرصون على أن تبقى الجثة فى حالة طيبة ، تفوح منها نفس العطور والدهون التى كان يستعملها الميت فى حياته الفانية . . ولهذا أيضا كانوا يضعون مع الجثة بعض الأدوات كالحلى والآنية والطعام وغيرها . حتى يجد الميت زاده ومتاعه فى رحلته إلى حيث يقضى حياته الباقية .

ولقد حفظ قدماء المصريين كذلك بعض حيواناتهم المقدسة التى كانت تعيش فى الهياكل والمعابد ، مثل القطط والكلاب والقرود والعجول والطيور والتماسيح والأسماك وغيرها . . وفى بعض الأحيان كانت تخصص لهذه الحيوانات مقابر هائلة .

أما فى العالم الجديد ، فقد أثبتت الآثار التى خلفتها حضارة قبائل «الإنكا» فى أمريكا الجنوبية ، أن القوم مارسوا التحنيط . . فالجثث التى عثر عليها ملفوفة بإتقان ومربوطة بالخيوط كانت محنطة بطريقة تؤكد أنها قد جففت قبل دفنها .

ولقد كان من رأى المؤرخ الإنجليزى « جرافتون إليوت سميث » فى أوائل القرن العشرين أن هذه القبائل قد أخذت وسائل التحنيط عن المصريين القدماء ، وأن هذه العملية قد انتقلت بطريقة ما ، من مصر القديمة إلى أمريكا الجنوبية . . وظل هذا الرأى سائداً لفترة طويلة ، ولكن المشتغلين بعلم الإنسان يميلون إلى عدم الأخذ بهذا الرأى .

وكانت بعض القبائل الإفريقية تمارس طريقة بدائية للتحنيط فقد وجدت جثث بعض زعماء قبيلة «أشانتى» مدفونة فى أوضاع توحى بما كان لهؤلاء العظماء فى قلوب رعاياهم من إجلال وتقدير، وقد حشيت فتحات الجسم السبعة بمسحوق الذهب الخالص . وكانت الجثة توضع فى نعش فوق حفرة لمدة ثمانين يوماً ، ثم كانت تدفن مع الجثة بعض التعاويذ ، التى اعتقد هؤلاء الناس أنها تحفظ الجسم فى حالته الطبيعية .

وقد ظل الناس إلى عهد قريب فى بعض القبائل المتخلفة فى أواسط أفريقيا يفصلون الرؤوس عن أجساد زعمائهم بعد الموت ، لاستخدامها فى طقوسهم الدينية التى تتصل بتقديس الآباء والأجداد .

وكان بعض الأفراد فى قبائل «الجيڤارو» بأمريكا الجنوبية ، وهى من قبائل الهنود الحمر ، يشتهرون بأن لهم مقدرة عجيبة على معالجة رؤوس الموتى بطريقة تجعلها تنكمش وتبدو كرؤوس الأقزام وقد دعاهم إلى ممارسة هذه العملية ما كانوا يعتقدونه من وجود الروح فى هذا الجزء من الجسم ، مما يزوده بقوى سحرية خارقة .

وأحياناً ما كانت بعض القبائل فى جزر الماليزيز وأمريكا الجنوبية ترتكب أفظع جرائم القتل واختطاف الناس ، لقطع رؤوسهم وحشوها والاحتفاظ بها ، مدفوعين إلى ذلك بنفس المعتقدات الخرافية التى آمنت بها قبائل « الجيڤارو » .

وقد بقى الناس يمارسون فن التحنيط على نطاق ضيق فى أوروبا ، ويستخدمونه فى دفن الملوك والعظماء وكبار رجال الكنيسة . وفى العصر الحديث يلجأ متعهدو الدفن فى بعض الأقطار إلى تحنيط جثث الموتى لحفظها فى حالة طبيعية حتى يتم دفنها أو إحراقها .

وفى بعض البلدان تفرض القوانين على الأهالى أن يحنطوا جثث موتاهم فى أحوال خاصة ، كما فى حالة انتشار الأمراض الوبائية ، أو عند نقل الجثث لدفنها فى مناطق بعيدة . ولمنع التعقيدات القانونية تمنع بعض الحكومات استخدام العقاقير السامة فى التحنيط ، مثل الزرنيخ والاستركنين ، وذلك حتى لايلجأ المجرمون إلى إخفاء جرائمهم بهذه الطريقة . . ويستخدم الفورمالين والكحول بدلا من هذه المواد السامة .

وفى بعض الأضرحة وخاصة فى مقبرة النجوم للاحتفاظ بها فى حالة طبيعية سليمة ، ولا يبخلون على هذه العملية بالكثير من المال والجهد ، حتى تبدو هذه الأجزاء فى أجمل صورة . . وكثيراً ما يوصى بعض الأغنياء أنفسهم بتحنيط أجزاء من جثثهم بعد الموت .

وفى الاتحاد السوفييتى قاموا بتحنيط جثث زعمائهم السياسيين مثل نيقولا لينين وچوزيف ستالين ، ووضعوها فى نواقيس زجاجية وذلك لتكريم هؤلاء الزعماء ، والاحتفاظ بأجسادهم فى حالة تمكن أفراد الشعب من زيارتهم والتعرف على ملامحهم .